

[العلوم الإسلامية في ظل الصراعات المذهبية والفكرية في العصر الوسيط]

[د. حاتم محمد محاميد - مدرّس والمحاضر في كلية سخنين لإعداد المعلمين]

[د. يونس فريد أبو الهيجاء - مدرّس والمحاضر في كلية سخنين لإعداد المعلمين ومرشد تربوي]

مجال البحث: العلوم الإسلامية / الدراسات الإسلامية

الملخص

يتمحور هذا البحث حول قضية تعارض العقل والنقل، والتي خلقت صراعات مذهبية وفكرية ما بين أهل السنة والحديث (النقل) وما بين أهل الرأي (العقل) وأثرها على العلوم الإسلامية في العصور الوسطى. وقد ظهرت إشكالية التعارض بين العقل والنقل بعد انفتاح المسلمين على الثقافات الأخرى، وترجمة كتب المنطق والفلسفة اليونانية، وتأثر بها بعض المفكرين المسلمين وعلمائهم، وأخذوا بتعظيمهم لها وبالنهج العقلاني، وجعله المعيار الأساسي لمفهوم العلوم في الإسلام. وقد تمخّض هذا الجدل عن عدد من الإتجاهات والمدارس الفكرية التي تعاملت مع النقل والعقل على أسس ومناهج متباينة. بعد ظهور المعتزلة والأشعرية ومحاولات التوفيق بين النقل والعقل، وانتصار أهل الحديث والسنة على أهل الرأي والفلسفة، انتهى الجدل إلى أن كلّ ما جاء في القرآن الكريم وما صحّ عن النبي (ص) لا يتعارض مع العقل.

يبين هذا البحث أنّ انتصار أهل الحديث على أهل الرأي، نتج عنه انتشار العلوم الدينية وتنوعها بإنشاء المؤسسات العلمية الدينية والمساجد المدعومة بالأوقاف والأعمال الخيرية. الأمر الذي ساهم في إحياء علوم الدين وإحياء السنة، ولكن، بقي الباب مفتوحاً والجدل قائماً بين العلماء وبين رجال الفكر حول مدى تحديد العمل بالرأي والعقل في الأمور الدينية ونشاطاتها العلمية المختلفة حتى يومنا هذا.

كلمات مفتاحية: العصر الإسلامي الوسيط، العقل والنقل، العلوم الإسلامية، العلوم الفلسفية، المذاهب والتيارات الفكرية، الصراعات الفكرية، إحياء السنة، علماء الفقه والحديث، الاجتهاد.

Abstract

(Dr. Hatim Muhammad Mahamid & Dr. Younis Fareed Abu Alhaija)

This research deals with the issue of incompatibility with reason and transmission (*al- 'aql wal-naql*), which created doctrinal and intellectual conflicts between Sunni and hadith scholars (transmission) and between people of opinion (reason) and their impact on Islamic sciences in the Middle Ages. The conflicts had deepened after the openness of Muslims to other cultures during the Umayyad and the first Abbasid eras, when the ancient sciences from the pre-Islamic civilizations began translated and used into the hands of scholars and men of Islamic thought. Some Muslim intellectuals and scholars were influenced by that philosophy by venerating the mind and making it the basic criterion for the concept of Islamic sciences. This controversy resulted in number of trends and schools of thought that dealt with transmission and reason on different approaches. After the emergence of the rationalist trend in the *Ash'ariyya*, the intellectual and political conflict over the identity of Islamic sciences increased between reason and transmission.

This research shows that the victory of the hadith scholars over rational intellectuals, since early eleventh century on, resulted in the spread and diversification of religious sciences by establishing religious institutions (*madrassa-s*) in addition to mosques supported by endowments and charitable works (*waqf*). This had contributed to the revival of various religious sciences and the Sunna, but the

door remained open, and controversy existed between scholars and intellectuals over the extent to which action is defined by opinion and reason in religious matters and its various activities to these days.

Keywords: Middle Islamic Era, Intellect and Transmission, Islamic Sciences, Rational Sciences, Doctrines and Intellectual Currents, Intellectual struggles, Sunni Revival, 'Ulama of *fiqh* and *hadith*, Ijtihad.

المقدمة

لقد جعل الإسلام للعقل مكانة عالية لأن القرآن يخاطب الإنسان بوصفه كائناً متميزاً عن غيره لكونه عاقلاً يفرق بين الحق والباطل، والخير والشر ولديه القدرة على معرفة ما يضره وما ينفعه (الذيب، 2010: 1-64). للتأكيد على قيمة العقل وعلو مكانته في الإسلام فإن السور القرآنية لا تكاد تخلو من ذكر الأعمال العقلية، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (سورة الحج، الآية 46). لقد رفع الإسلام من شأن العقل، وجعل له مكانة كبيرة وعظيمة في مجال التدبر والعلم، والفقه، والنظر، لأن الله تعالى جعل ذلك من وظائفه التي خصه بها.

احتلت قضية تعارض العقل والنقل - لإرتباطها الوثيق بالتكوين الفكري والثقافي لعلماء المسلمين - ومشكلة العلاقة بينهما مكانة هامة في تاريخ الفكر الإنساني عامة، وفي تاريخ الفكر الإسلامي خاصة، فهي تعتبر مشكلة وقضية قديمة الدراسة، وذلك لما نتج عنها من ظهور العديد من الآراء المتباينة. فقد تخلل الفكر الإسلامي قضايا عديدة تتعلق بالإسلام وعلاقته بالمجتمع، ومن بينها قضية العقل والنقل، حيث أجريت حولها دراسات عديدة من قبل مفكري العرب والمسلمين والتي أظهرت صراعاً حاداً بين منظومات فكرية مختلفة وخلق صراعات فكرية وعقائدية في الإسلام. وقد ظهرت بشكل جاد في الفكر الإسلامي عند ترجمة الفلسفة اليونانية التي كانت مبنية على ما يُسمى بالمنطق الصوري.

لقد انبثق هذا الصراع عن عدد من الاتجاهات والمدارس الفكرية التي تعاملت مع النقل والعقل على أسس ومناهج متباينة: ما بين أهل السنة والحديث (النقل) الذين أشاروا إلى أن العلم في الإسلام يعتمد على الأصول الدينية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أو السنة النبوية، وما بين أهل الرأي (العقل) الذين نادوا بوجود تقديم العقل على النقل ونظروا إلى العلوم على أنها تعتمد على العقل والإنتاج الفكري، وقد تمثل ذلك بظهور حركة المعتزلة، ذلك أنها أولى المصادر التي نادت أو أسست بما يسمى التيار العقلاني في الإسلام. وقد أكدت المعتزلة على أهمية العقل في الفكر الإسلامي، ووجوب الاعتماد عليه في معرفة الله والدين، فقاموا بتأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة بما يتناسب مع أدلة العقل والقياس المنطقي، ولهذا اعتبرت العقل هو الأصل والنقل هو الفرع التابع له وأقرت كذلك بوجود الاستدلال بالأدلة العقلية على حساب النقلية.

وبما أن علاقة العقل بالنقل قديمة في تاريخ الفكر الإسلامي فنجد أنه قد تعرض لها الكثير من علماء الكلام والفلاسفة، من بينهم الفيلسوف الإسلامي أبو حامد الغزالي، حيث قام بنقد المعتزلة التي تميزت في تمجيد العقل على حساب النص القرآني وأكد أنه لا يوجد تعارض بين العقل والشرع لأن كليهما في نظره نور من عند الله، فلا ينقض أحدهما الآخر. فمنهج المعرفة السوي في نظر الغزالي ينحصر في الجمع بين نور الشرع ونور العقل وعدم فصل أحدهما عن الآخر وأن المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية أمر لا بد منه لمن أراد الوصول إلى الحقيقة. لذا من البديهي أن نرى تأثير الرأي والعقل على غالبية الحركات الدينية والسياسية في الإسلام بدرجات متفاوتة، الأمر الذي بدا واضحاً من خلال العلوم والتفسيرات لكل تيار أو حركة دينية. من هنا يركز هذا البحث على آثار التداخل بين هذين التيارين، العقل والنقل، والصراعات التي نشأت نتيجة لذلك وأثرها على صبغة العلوم الإسلامية والقائمين عليها في العصور الوسطى، والذي ترك أثره على المدى البعيد حتى أيامنا هذه، من حيث الفكر الإسلامي وتنوعه، وظهور تيارات فكرية جديدة.

مشكلة الدراسة وأسئلتها

لقد تخلّل الفكر الإسلامي قضايا عديدة تتعلق بالإسلام وعلاقته بالمجتمع، ومن بينها قضية تعارض العقل والنقل التي احتلت مكانة هامة في تاريخ الفكر الإنساني عامة، وفي تاريخ الفكر الإسلامي خاصة، وذلك لما نتج عنها من ظهور العديد من الآراء المتباينة. وقد أُجريت حول هذه القضية دراسات عديدة من قبل مفكري العرب والمسلمين والتي أظهرت صراعاً حاداً بين تيارات فكرية مختلفة، منها الدينية ومنها العقلانية، وخلقت صراعات فكرية وعقائدية في الإسلام. لذا تسعى هذه الدراسة إلى مناقشة وتوضيح آثار التداخل بين العلوم العقلية والعلوم الدينية، والصراعات التي نشأت نتيجة لذلك من خلال الإجابة عن السؤال: ما أثر الصراعات التي نشأت بين العلوم العقلية والعلوم الدينية على صبغة العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتنوعه؟

أهمية الدراسة

تعود أهمية مناقشة هذه الصراعات بين التيارات العقلية والنقلية لكون كلٍّ منهما له نهجه الخاص من طرق المعرفة في الفكر الإسلامي، بحيث شكّلت هذه القضية مثار جدلٍ وصراعٍ حادٍ بين تيارات فكرية مختلفة. هذه الصراعات الفكرية والعقائدية والمذهبية في الإسلام، ما بين أهل السنة والحديث (النقل) وما بين أهل الرأي (العقل)، خلقت تنوعاً في العلوم الإسلامية تمثل بظهور حركة المعتزلة العقلانية من جهة، والعلوم الدينية النقلية من جهة أخرى. وقد تمخّض هذا الجدل عن عدد من الإتجاهات والمدارس الفكرية التي تعاملت مع النقل والعقل على أسسٍ ومناهج متباينة.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة الحالية إلى مناقشة قضية تعارض العقل والنقل، والتي خلقت صراعات مذهبية وفكرية ما بين أهل السنة والحديث وما بين أهل الرأي وأثرها على العلوم الإسلامية في العصور الوسطى. وقد ظهرت الصراعات والتعارض بعد انفتاح المسلمين على الثقافات الأخرى، وترجمة كتب المنطق والفلسفة اليونانية. وقد تأثر بعض مفكري المسلمين وعلمائهم بتلك الفلسفة بتعظيمها للعقل، وجعله المعيار الأساسي لمفهوم العلوم في الإسلام.

حدود الدراسة

قضية الصراع ما بين أهل السنة والحديث وما بين أهل الرأي، وأثره في العلوم الإسلامية.

منهج الدراسة

يستخدم الباحثان المنهج الوصفي التحليلي والذي يعتمد على مصادر أولية تاريخية تربية في الإسلام في العصور الوسطى لمجموعة من العلماء والمفكرين لمناقشة وتحليل القضايا التي وردت في الدراسة. تتحدّد منهجية الدراسة في ضوء طبيعة الموضوع والأهداف التي يتطلّع الباحثان إلى تحقيقها من وراء إجراء موضوع الدراسة الحالية وأهدافها. كما واعتمدت الدراسة على أبحاث ومراجعة بعض الدراسات الحديثة في هذا المجال. وعلى هذا الأساس قام الباحثان باستخدام هذا المنهج.

العلوم الإسلامية ومفهومها ما بين العقل والنقل

هناك اختلافات في مفهوم العلم في الإسلام. ففي حين يعتبر علماء المسلمين العلم هو كلّ ما يتعلّق في علم الشرع والدين، نلاحظ أنّ مفهوم العلم عند الفلاسفة والحكماء هو كلّ ما ينبثق عن العقل من فكر وإنتاج عقلي. ويقول أبو حامد الغزالي أنّ المتكلمين (فلاسفة علم الكلام)، وهم من أهل العقل، يرون به علم الكلام، إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته من خلال كلام القرآن الكريم وتفسيره. ويقول الفقهاء أنّ العلم هو علم الفقه، إذ به تُعرف العبادات والحلال والحرام. أمّا المفسّرون والمحدّثون فيرون بالعلم أنّه علم الكتاب (القرآن) والسنة. أمّا أهل الصوفية فيرون بالعلم أنّه علم العبد بحاله ومقامه من الله عزّ وجلّ، أي "المعرفة" (Saliba, 2007: 1-72).

من هنا، اتخذ كلّ طرف مفهوم العلم لخدمة العلوم التي يبحث بها كلّ منهم. فالعلم في الإسلام يعتمد على الأصول والنصوص الدينية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أو السنة النبوية. لذا عُرفت هذه العلوم بعدة تسميات، منها العلوم الدينية أو العلوم الشرعية. كما عُرفت أيضاً بالعلوم النقلية لاعتمادها على حفظ السور القرآنية والاحاديث النبوية وآراء الأئمة، ونقلها كما هي

للأجيال اللاحقة، ولا يمكن العبث بها أو مراجعة تلك النصوص. وهكذا، وفقاً لهذه المفاهيم المختلفة تجاه العلم جاءت الاختلافات أيضاً بمفهوم القائمين على هذه العلوم والضالعين بها. فحسب المفهوم الإسلامي يُعرف المتمسكون بهذه العلوم بأهل النقل، والضالعين فيها يُعرف بالعالم (العلماء) بشكل عام أو بالتحديد نسبة إلى المجال الديني الذي يبرز ويتخصص به، مثل الفقيه، المحدث أو الحافظ، المفسر، الواعظ وغيرها. وهؤلاء هم من يكون لديهم الرواية والدراية والحفظ في العلوم الدينية، ومن استقى منها بما فيه الكفاية حتى يحملوا لقب العالم في لمعرفتهم بأمور الفقه ودرايتهم بأمور الشرع الإسلامي، أو لقب الحافظ (الحفاظ) لحفظهم ودرايتهم بالحديث الشريف بصحيحه وسقيمه، كالحافظ ابن عساكر مثلاً (حسن، ج1، 1996: 405-415).

أما العلوم التي تعتمد على العقل والإنتاج الفكري، فقد عُرفت بعدة تسميات، منها العلوم العقلية، الفلسفية، الحكمية، أو العلوم الدنيوية لخدمتها أمور الدنيا. هذه العلوم، تتجدد ويُعتمد فيها أولاً على الفكر والابتكار والتجديد، كما وتكون قابلة للنقاش والجدل، والتحليل والتفسير، والاختبارات والاكتشافات وابتكار النظريات حولها، مما يجعلها قابلة للتغير والتجدد. ويُعرف القائمون على هذه العلوم حسب درايتهم بها والخبرة التي يبرز فيها صاحبها، مثل الفيلسوف، الحكيم، الحاسب، الموقت، المنجم، الفلكي، العطار، وغيرها من التسميات. وبما أن هذه العلوم كانت قد أنتجت الحضارات الانسانية المختلفة قبل الإسلام فقد عُرفت أيضاً بعلوم الأوائل أو العلوم القديمة كال يونانية (الإغريقية)، الرومانية، الفارسية، الهندية وغيرها (حسن، ج1، 1996: 415-418؛ ج2، 1996: 264-290).

وحول هذه المفاهيم واختلافاتها، تطرق الكثير من علماء المسلمين في شرح تعريفاتها والغوص في مكنوناتها، فوائدها وأثرها على المجتمعات الإنسانية وتطوراتها. أبو حامد الغزالي (ت. 1111م)، مثلاً، يبحر في تعليقاته وشرحه حول هذه العلوم في مؤلفه الشهير "إحياء علوم الدين"، حيث يقسم العلوم من منظور ديني إلى علوم شرعية، وهي العلوم الدينية بأصولها وفروعها، وعلوم غير شرعية، وهي العلوم العقلية التي تتعارض مع المعتقدات الدينية في الإسلام، حسب رأيه، ما عدا ما يخدم المسلمين في مصالحهم، فيسميها "العلوم الممدوحة"، مثل الرياضيات والطب (أبو حامد الغزالي، 2005: 11-52). أما العلامة ابن خلدون (ت. 1406م)، فقد قسم العلوم إلى عقلية ونقلية. فيقول في هذا السياق في كتابه "المقدمة": "إعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار، تحصيلاً وتعليماً، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلية يأخذ عن غيره. والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية... والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في الحاق الفروع من مسائلها بالأصول..." (ابن خلدون، ج2، 2004: 171-379). كما يذكر ابن خلدون في موقع آخر من مقدمته قوله: "... فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة: المنطق وهو المقدم منها، وبعده التعاليم فالأرثماطيقى أولاً ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الإلهيات، ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه. فمن فروع الطبيعيات الطب، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات، ومن فروع الهيئة الأزياج وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك. ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية..." (ابن خلدون، ج2، 2004: 248-339).

فمن هذا المنطلق أخذ المسلمون يتعاملون مع العلوم المختلفة من المنظور الديني والمصلحة العامة للمسلمين. فبعد انتشار المسلمين بفتوحاتهم خارج الجزيرة العربية، واختلاطهم بالشعوب والحضارات القديمة، أخذوا ينقلون هذه الحضارات بعلومها وفنونها إلى الحضارة الإسلامية ووصلت أوجها في نشاطات بيت الحكمة في عهد الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (ت. 833م) (الرباضي، 2010: 104؛ العشي، 1991: 41-96؛ التميمي، 2011: 41؛ عطا الله، 1989: 33؛ Lyons, 2009; Lyons, 2011; Al-Khalili, 2014). يمكن تدرج مراحل اكتساب المسلمين للعلوم العقلية والقديمة بثلاث مراحل رئيسية: مرحلة النقل والترجمة، مرحلة الدراسة والفهم، ثم مرحلة الإنتاج الفكري والتأليف بهذه العلوم. لذا، عُرفت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي بعصر النهضة في الإسلام لانفتاحها أمام العلوم العقلية والفلسفية ورواجها بين المسلمين.

يذكر يوسف العشي في بحثه حول المكتبات في الإسلام في العصور الوسطى، أن أول بيت من بيوت الحكمة في العصر الإسلامي كان لمعاوية بن أبي سفيان في دمشق، ثم وصل مع مكتبته بين يدي حفيده خالد بن يزيد، الذي كان عالماً ومولعاً بالعلوم الفلسفية، وأخذ بتطوير المكتبة بنقل الكتب وعملات النسخ والترجمة (العشي، 1991: 43-51، 52-58، 63-68). وقد نشطت حركة الترجمة في العصر العباسي، وخاصة في عهد المأمون الذي شجع نقل الكتب وترجمتها من لغات الحضارات القديمة إلى اللغة العربية ثم دراستها والتأليف بها. وقد برز منهم الكثير من المترجمين من المسيحيين العرب، مثل جرجس بن جبرائيل وخنين بن إسحاق من أهل الحيرة. ونتيجة لهذه الترجمة أضيفت إليها الكثير من الإنجازات على يد العلماء المسلمين فيما بعد، الذين لعبوا

دوراً هاماً في نقل هذه العلوم وترجمتها من مصادرها إلى اللغة العربية في مختلف فنون العلم والمعرفة، مثل الفلسفة والطب والصيدلة والكيمياء وغيرها. وقد ظهر العديد من الفلاسفة المسلمين، منهم: أبو يوسف يعقوب بن يوسف الكندي، أبو النصر محمد الفارابي، والرازي وابن سينا وآخرون. وفي مجال الرياضيات والهندسة والفيزياء والفلك برز العديد منهم أمثال: محمد بن موسى الخوارزمي، محمد بن جابر البتاني، محمد بن أحمد البيروني، ابن الهيثم، عباس بن فرناس، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس وغيرهم. وفي مجالات الطب والصيدلة والكيمياء برز الكثير، منهم أبو بكر الرازي، جابر بن حيان، أبو القاسم الزهراوي الأندلسي، ابن سينا، عمّار بن علي الموصلي، ابن النفيس وغيرهم (Gutas, 2012).

1. تيارات أهل الرأي وأهل الكلام

كان ظهور الفكر العقلائي في الإسلام في فترات مبكرة قبل ظهور المعتزلة في العصر الأموي ومع الإنفتاح على الحضارات القديمة على أثر الفتوحات في هذا العهد إلى حدود الصين وأواسط آسيا شرقاً، وإلى شمال أفريقيا والأندلس غرباً. ويذكر المُقدّسي البشاري أنّ أصل مذاهب المسلمين متشعبة من أربع: الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة (المقدّسي، 1987: 44-48؛ الشهرستاني، ج1: 1992؛ البغدادي، 1988). ومنها تشعبت العديد من المذاهب ذوي آراء وأفكار خاصة بها، فمنها المختلف ومنها المؤتلف. فقد ظهر مفكرون في أكثر من مكان في الدولة الإسلامية، كان لهم دور في هذا المجال مثل: عمرو المقصوص، والجعد بن درهم، وغيلان الدمشقي، والجهم بن صفوان وغيرهم. وكان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (ت 90هـ/709م)، حفيد الخليفة الأموي الأول، قد رفض أن يتولّى الخلافة، وذلك لاهتمامه وتفوّغه في العلوم العقلية، وخاصة علم الكيمياء، والتي برع فيها علماً وعملاً، حيث ترجم بعض الكتب من اليونانية إلى العربية، كما وألف فيها بعض الرسائل (إبن خلكان، ج2، 1978: 224-226؛ لطف الله، 1986). من هذا المنطلق، يمكن الاستنتاج أن علم الكلام نشأ في هذه المرحلة المبكرة كنتاج عقلي لتفسير بعض الظواهر الدينية التي لم تكن واضحة للمسلمين من خلال النصوص في هذه الفترة من التاريخ الإسلامي- Daftary, 2001; Goldziher, 1981: 67 (115؛ دفتري، 2004).

2. المعتزلة وأثرها

في أواخر العصر الأموي أخذت تتبلور معالم فرقة فكرية كلامية عُرفت باسم "المعتزلة" أو "المتكلمون"، "فلاسفة المسلمين" أو "أهل العدل والتوحيد"، وهم المتكلمون الذين منحوا العقل أهميته كبره وحاولوا تفسير الحقائق الدينية بواسطه العقل، وذلك خلافاً لمعارضهم من أهل النقل أو أهل الحديث، الذين تمسكوا بالعمل على إثبات الأمور الدينية وأحكامها عن طريق التمسك بالنصوص من القرآن والسنة. ويعتبر العقل بمثابة الركيزة الأساسية التي يعتمد عليها المعتزلة بصورة عامة، بحيث أكدت سبق الجانب العقلي على الجانب السمي. ويؤكد القاضي عبد الجبار المعتزلي أن معرفة السمع لا تصح إلا بالعقل، وهي بهذا تعطي الأولوية للجانب العقلي وتسبقه على النقل، لأنه في نظرهم هو الذي يقود الإنسان إلى المعرفة الدينية الصحيحة، أو بالأحرى إلى المعرفة العامة ككل، حيث يُعد التأويل من أهم الأمور التي تربط الجانب العقلي بالدين، وهذا ما عملت عليه المعتزلة للتفسير الديني السليم للآيات القرآنية (خميس، 2012: 95-109).

في أواخر العصر الأموي أصبحت الأفكار الكلامية والعلوم الطبيعية منتشرة في أنحاء مختلفة من الدولة الأموية، وبرز العديد من الشخصيات، أمثال: واصل بن عطاء، وأبو الهذيل العلاف، وغيرهم، ممّن رسخ الأرضية الفكرية لتيّار المعتزلة فيما بعد في العصر العباسي، والتي برزت أهم أفكارهم حول مسؤولية الإنسان عن أعماله وحرية الاختيار والقضاء والقدر (القدرة)، والتي عرفت بمصطلح "خلق الأفعال"، ثم منح العقل البشري حرية ومكانة أكبر في التفكير العقلائي (لطف الله، 1986: 165-174؛ العوّا، 2016: 193-245؛ حسن، ج2، 1996: 7-21). وقد أثارت أفكار المعتزلة جدلاً حاداً، وخاصة في قضية "خلق القرآن" التي عُرفت بمصطلح "المحنة"، كأفكار الإمام المعتزلي الكبير: الإمام أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام (وفاته ما بين عام 221هـ/836م وعام 229هـ/844م)، أي في أوج قوة المعتزلة وانتشار أفكارها وأثرها في العصر العباسي الأول، في عهد الخلفاء العباسيين الثلاثة الداعمين لها: المأمون (ت 218هـ/833م)، المعتصم (ت 227هـ/842م) والواثق (ت 232هـ/847م) (العش، 1991: 84-85).

في هذه الفترة، بلغت مؤسسة بيت الحكمة أوج نشاطها التعليمي، النسخ والترجمة والتأليف والتصنيف، وكذلك في جمع وتخزين الكتب للعلوم المختلفة الدينية والعقلية الفلسفية في آن واحد. هذا الجدل، جعل غالبية التيارات المختلفة في الإسلام، مثل تيار أهل السنة والشيعة والجهمية والمرجئة وغيرها أن يعارضوا هذا الفكر والرأي للمعتزلة. وقد حاولت كل فئة من هذه التيارات عقد المناظرات لإثبات كل فئة مصداقية أقوالها وأفكارها من خلال المناقشات والكتب والتأليف والرسائل، الأمر الذي غدّى الحضارة الإسلامية بالتنوع والتعددية الفكرية الواسعة (حسن، ج2، 1996: 125-135). ويرى عدد من الباحثين في العصر الحديث أن ليس من شك بأنّ المعتزلة كان لهم دور كبير وإسهامات في طرح أفكار ونظريات نقدية تعتمد على العقل، والتي تركت أثرها في مجالات

عدة وعلوم مختلفة في العالم الإسلامي في الماضي والحاضر، مثل تفسير القرآن الذي يعتمد على التفسير بالتأويل، أي باتباع علم الكلام والمفاهيم العقلانية، وهذا ما اتبعه أهل الشيعة أيضاً في تفسير القرآن. كذلك ترك المعتزلة أثرهم في علم أصول الفقه، وعلوم اللغة العربية بنحوها وصرفها وبلاغتها وغيرها من العلوم، وذلك استناداً إلى مبادئهم الفكرية برفض التقليد، وبحرية العقل والتفكير التي توصل الإنسان إلى إدراك الأدلة المطلوبة (حمد وآخرون، 2017؛ Goldziher, 1981: 85-100).

3. أئمة المذاهب وأثرهم في العلوم الإسلامية

بالتزامن مع انتشار الفكر المعتزلي بقوة في هذه المرحلة ظهر من رجال الدين من حاول الدفاع عن الفكر الإسلامي بأصوله. فيذكر البغدادي مثلاً، أنّ هذه الفترة التي انتشر فيها فكر القدرية والمعتزلة تركت الأئمة في تشعبات عدّة، ويذكرها بصفاتها وأسمائها وأفكارها ومنها من أهل السنة. ويصنّف البغدادي فضائل أهل السنة وأنواع علومهم. فمنهم من حارب القدرية والمعتزلة باستخدام علم الكلام، ويسمّيهم "أئمة أصول الدين وعلماء الكلام من أهل السنة"، ويقول بذلك: "فأول مُتَكَلِّمِيهم من الصّحابة: عليّ بن أبي طالب ... حيث ناظر الخوارج في مسائل الوعد والوعيد، وناظر القدرية...، وأول مُتَكَلِّمِي أهل السنة من التابعين: عمر بن عبد العزيز ... ثمّ زيد بن عليّ زين العابدين..." (البغدادي، 1988: 314-316). وهذا يبيّن أن العمل بالكلام والعقل كان مُتَّبِعاً في العصر الإسلامي الأول للدفاع عن الدين ونصوصه بطريقة عقلانية، أو لإيجاد حلول وأجوبة لأُمُور لم يكن لها تفسيرات في النصوص الدنيّة في القرآن والسنة. هذا يمكن استخلاصه من الحديث عن الرسول (ص) حين أقرّ معاذ بن جبل على اجتهد رأيهِ في القضاء، عندما بعثه والياً على اليمن، فيما لم يجد فيه نصّاً عن الله ورسوله (السّجّستاني، ج 5، 2009: 443-445). كما برز من علماء الفقه والحديث، منهم الإمام أبو حنيفة النّعمان (ت 767م)، الإمام مالك بن أنس (ت 795م)، الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت 820م) ثم الإمام أحمد ابن حنبل (ت 855م). منهم من تمسك بالعلوم الدينية بالنقل والنص، أمثال ابن حنبل ومالك بن أنس، بينما أبو حنيفة والشافعي، حافظوا على أصول الدين مع الإحتكام إلى الرأي والاجتهاد إلى حدّ معيّن. وقد شكّلت كتبهم ومخلفاتهم الدينية قاعدة للعلوم الدينية حتى يومنا هذا وهي: "الفقه الكبير" لأبي حنيفة، كتاب "الموطأ" لمالك بن أنس، "كتاب الأم" للشافعي وكتاب "المُسند الكبير" لابن حنبل (فياض، 2011؛ سمريني، 2020: 98-77).

بعد اتّخاذ الخليفة المتوكل (حكّم بين عام 847م وحتى 860م) سياسة مناقضة لسابقه، وقام بإغلاق بيت الحكمة في بغداد ومنع العمل فيه، مع ملاحقة الفكر المعتزلي ومنع الإشتغال بعلم الكلام والعلوم العقلية من جهة، أخذ بدعم تيار أهل النقل والحديث بإخراج أحمد ابن حنبل من السجن ودعم أتباعه في علوم القرآن والحديث من جهة ثانية. فيقول ابن كثير في هذا السياق في أحداث عام 237هـ/ 851م: "... ثم كتّب المتوكل إلى الآفاق بالمنع من الكلام في مسألة الكلام والكفّ عن القول بخلق القرآن، وأنّ من تعلّم علم الكلام، لو تكلم في المنطق، مأواه إلى أن يموت. وأمر الناس أن لا يشتغل أحدٌ إلا بالكتاب والسنة لا غير. ثم أظهر إكرام الإمام أحمد بن حنبل واستدعاه من بغداد إليه، فاجتمع به فأكرمه... وارتفعت السنة جدّاً في أيّام المتوكل ... وكان لا يولي أحدٌ إلا بعد مشورة الإمام أحمد ... " (ابن كثير، ج 10، 1990: 316؛ ابن الأثير، ج 5، 1983: 291). وقد استغلّ الحنابلة هذا الدعم من الحُكّام في تلك الفترة، وأخذوا يبالغون في تصرفاتهم في بغداد، مركز الدولة العباسية، ضد أتباع أهل العقل وكلّ من يرون به مخالفاً لأفكارهم في أمور الشرع أو مجدّداً في النهج والعادات، حتى أنّهم أثّروا فتنة عام 323هـ / 935م، والتي ذكرها ابن الأثير بقوله: "وفيها عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم..." (ابن الأثير، ج 6، 1983: 248).

بعد عصر هؤلاء الأئمة، بدأت مرحلة جديدة عُرفت بـ "إنتصار النقل على العقل"، حيث أخذت تترسّخ فيها العلوم الدينية بأصولها وفروعها وبأفكارها، والعمل على تدوين علم الحديث ونقده، من خلال الإسناد وتصنيفه إلى صحيح وحسن وضعيف وموضوع، والمتواتر والمقطوع والمرفوع وغيرها من المعايير لإثبات صحة الحديث أو ضعفه. لقد تطور الأمر بالاهتمام بالحديث ورواته إلى علوم فرعية أخرى، منها علم الرجال / طبقات محدّثين / الحقاظ، أو علم الجرح والتعديل وغيرها من التصنيفات التي عمل عليها رواة الحديث "المسندون" وأئمة الحديث، ومنهم: الإمام البخاري (ت 870م) وكتابه "صحيح البخاري"، الإمام مسلم (ت 875م) وكتابه "صحيح مسلم". ومن أصحاب السّنن ابن ماجة القزويني (ت 886م) (السّنن)، الإمام محمد بن عيسى الترمذي (توفي 892م) (السّنن)، أبو داود السّجّستاني (توفي 899م) (السّنن)، الإمام أبو عبد الرحمن النّسائي (توفي 915م) (السّنن)، وغيرهم من رواة الحديث الذين برزوا فيما بعد مستنديين على هؤلاء الأئمة والمسندين (الرويثي، 2018: 678-696).

4. الأشعرية وأثرها بين العقل والنقل

الغلو الذي وصل إليه بعض علماء المعتزلة وصراهم الفكري مع أهل الحديث، جعل البعض من العلماء يميلون إلى الوسطية والتوفيقية بين أهل السنة والحديث وبين آراء المعتزلة، أي بين أهل النقل وبين أهل العقل، وكان الأبرز من بينهم الإمام أبو الحسن الأشعري (ت 324هـ/935م) في بغداد، وحركة الإمام أبو منصور الماتريدي في سمرقند (ت 333هـ/944م)، الذي حاول تفسير وتحليل أفكار المعتزلة ليس بعيداً عن التوافق مع أفكار أهل السنة والحديث، ولكن بأساليب عقلانية (العماري، 2020: 53-81). وعلى الرغم من محاولة هذا التيار (الأشعرية والماتريدي) للتمسك بشرعية أهل السنة والجماعة ومناصرتها، إلا أن أفكارها بقيت مثار شكوك عند بعض التيارات في أهل السنة والحديث (العوّاء، 2016: 309-329؛ أبو بكر ابن العربي، 1992: 260-269؛ Goldziher, 1981: 95-115). في ظل هذه الظروف العصبية على الأمة الإسلامية كان لأتباع الأشعرية الدور البارز والكبير في انتصار أهل السنة والجماعة على المعتزلة، بتحليلهم لبعض المواقف والأفكار الخلافية بما يتمشى مع نهج أهل السنة والجماعة، مثل مسألة التشبيه والتجسيم (التوحيد الإلهي) ومسألة القضاء والقدر ومسألة خلق القرآن. كما استبدلت الكثير من مصطلحات المعتزلة والتي اعتُبرت شركاً بالله، مثل العلم والمعرفة والقوة والحكمة، حيث اقترح أبو المعالي الجويني الملقب بـ"إمام الحرمين" (ت 478هـ/1085م)، القول بالصفات الأبدية الخالصة لله عز وجل. ومن شعر الجويني منتقداً العمل بالعقل والرأي، يقول: (ابن العماد، ج 5، 1992: 338-342؛ الإسنوي، ج 1، 1987: 197-198)

نهایة إقدام العقولِ عقالٌ وغاية آراء الرجال ضلالٌ
وأرواحنا في وحشة من جسامنا وغاية دُنْيانا أذى ووبالٌ

وهكذا، ومع مطلع القرن الحادي عشر، بدأ حُكام المسلمين يتبنون مواقف الأشعرية وأفكارها، وذلك بفضل جهود العديد من علماء الإسلام مثل الإمام الجويني وتلاميذه، مثل الشيخ الإمام أبو حامد الغزالي. وقد اتبع هؤلاء استخدام الرأي والحكمة والمنطق لتطوير علم الكلام والفقه الإسلامي، والتي بحسبها تم صياغة وحل الكثير من نقاط الخلاف لتكون مقبولة عند أهل السنة والجماعة (Widigdo, 2017: 427-462). وقد وضعت الأشعرية خطوطاً واضحة المعالم لأهل السنة والجماعة إلى يومنا هذا، مقابل بعض التيارات الشيعية التي منها ما تبنت أفكار المعتزلة، فكان ذلك انتصاراً لأهل الحديث على أهل الرأي والعقل والمنطق، والذي تجسّد في مناهج التعليم وفروعه عند أهل السنة والجماعة.

فعلى سبيل المثال، يؤكّد الباحثان كرومي وإبراهيم أنّ العقل قد حظي بمكانة كبيرة عند الغزالي، حيث كان متمسكاً جداً بالعقل، وقام بتمجيده وأعلى من شأنه، ولكنه قام بنقد المعتزلة التي أخلّت في تمجيدها للعقل على حساب النصّ القرآني. فهو يرى بأنّه لا يوجد معاندة بين كل من العقل والنقل، ولا يجب الأخذ لأحدهما على حساب الآخر فهو نوع من الضلال عما يدعوننا إليه الدين (كرومي وإبراهيم، 2014: 1-32). ولهذا نجد أنّ الغزالي يؤكّد على الوسطية والأخذ بكلا الجانبين، ويشير إلى أهمية العقل وشرفه، بقوله: "إعلم أنّ هذا ممّا لا يحتاج إلى تكلفٍ في إظهاره، لا سيّما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه..." (أبو حامد الغزالي، 2005: 98-105). إذ، يمكن الاستخلاص بأنّ الغزالي يحاول بفلسفته التوفيق ما بين العقل والنقل والجمع بينهما، إذ أحصى الأقاويل السلبية التي قيلت بشأن عدم اتفاق العقل والنقل وأحالتها إلى عمى في البصيرة وخلل في الذات وخيال ناقص وأحكام ظنيّة، بحيث لا يمكن الوصول إلى حقائق دينية يقينية بالفصل بينهما، بل لابد من المزاوجة بينهما ليحصل الإنسان على معرفة ثابتة تقوده إلى النور (حمود، 1990: 175).

على أثر ذلك، ظهرت في العصر العباسي تصنيفات لأهل العلم والفكر عُرفت بالطبقات من ذوي التوجّهات الفكرية المختلفة، ما بين الثقل وبين العقل. فالمؤرخ حسن إبراهيم حسن يوعز ذلك إلى انتشار الثقافة الإسلامية بفضل الترجمة إلى اللغة العربية من اللغات الأجنبية والتي انتشرت فيها الحضارات القديمة مثل اليونانية، الفارسية والهندية. كما ساهم في ذلك دعم وتشجيع الخلفاء والحُكام لرجال العلم والأدب، وخاصة مع قيام العديد من مراكز الحكم المستقلة مثل الدولة الفاطمية في مصر، وكذلك الدولة الأموية في الأندلس والموحدين والمرابطين في شمال أفريقيا أيضاً، وكذلك قيام الممالك شبه المستقلة تحت كنف الخلافة العباسية في المشرق الإسلامي وغربه، مثل الدولة السامانية والغزنوية والبُوَيْهية والدولة الحمدانية في المشرق، والدولة الطولونية والإخشيدية في مصر، حيث نشطت فيها الحركة العلمية والفكرية مُنْافَسَةً في قصور الحُكام والسلاطين (حسن، ج 3، 1996: 339-346).

على الرغم من الضعف والتفكك السياسي في هذه الدول، لكنّ حُكامها اهتموا في عمران حواضرهم ومدنهم الرئيسية كمراكز للحكم، الأمر الذي جعل هذه المدن تتطوّر إلى مراكز ثقافية تنافس مركز الخلافة في بغداد. هذا ما يؤكّده ابن خلدون، في قوله: "في أنّ العلوم إنّما تكثر بحيث يكثّر العمران وتعمّم الحضارة... إنّ تعليم العلم من جملة الصنائع و... أنّ الصنائع إنّما تكثّر في الأمصار..." (ابن خلدون، ج 2، 2004: 170). كما ساهم في هذه الحركة الفكرية أيضاً، ظهور الكثير من الفرق والأحزاب السياسية والفكرية،

على أثر الإنشقاكات فيما بينها، وذلك لخدمة مصالحها الدينية والسياسية، كما كان في مثال المعتزلة، التيارات الشيعية، والطرق الصوفية وحتى في الإسلام السي الذي بدأ يتبلور حسب مذاهب الأئمة الأربعة الرئيسية. نتيجة لهذه التطورات، بدأت تظهر طبقات من المفكرين المسلمين تشمل جميع أنواع العلوم العقلية والنقلية وما بينهما، والذين برزوا كل في مجاله متأثرين في الأفكار العقلية والنقلية، دراسة وتدریسا، وإنتاجاً فكرياً ونشرها في المؤلفات والمصنّفات المختلفة في أمور الدين والدنيا، الأدب والشعر، وفن الكتابة، والفلسفة والطب والصيدلة والرياضيات وعلم الهيئة والتجوم وغيرها. ويمكن إيجاز أمثلة من هذه الطبقات من العلماء والمفكرين من خلال الجدول التالي: (حسن، ج3، 1996: 339-413؛ السيوطي، ج1، 1967: 398-577).

أهل النقل - العلماء	طبقات الأدباء والشعراء	أهل العقل (الحكماء والفلاسفة)
أرباب العمام - المحدثون الفقهاء القراء والمفسرون المتكلمون الزهاد علماء الصوفية	أرباب الأقلام - المناصب الديوانية الوزراء وزراء التنفيذ وزراء التفويض الكتاب أهل الأدب والشعر في اللغة العربية: الشعراء (أبو نواس، أبو تمام، البحتري، بشّار بن بُرد، أبو العتاهية، ابن الرومي، ابن المعتز، المتنبّي، أبو فراس الحمداني، ابن زيدون وغيرهم...) أهل النثر - (إبن المقفع، الجاحظ، إبن أدباء السجع والنحو - (سيبويه، الخليل بن أحمد، بديع الزمان الهمداني، الحريري، أبو الأسود الدؤلي، الكسائي، الفراء)	مثل: حنين بن إسحاق، أبو بكر الرازي، إبن سينا، جابر بن حيان، الفارابي، البيروني، الخوارزمي، إبن الهيثم، إبن النفيس، الكندي (فيلسوف العرب)، إبن رشد، إبن طقيل

5. مفهوم العلم عند أهل الشيعة:

يذكر جامع الحديث إبن إسحاق الكليني، من أهل الشيعة، في كتابه الكافي، باباً كاملاً في فضل العلم وصفته وفرضه ووجوب طلبه والحث عليه، وفي فضل العلماء، وثواب العالم والمتعلم، ويُنهي الكليني هذا الموضوع بالحث على الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب. ويشمل في كتابه العديد من الروايات والأحاديث الشريفة، منها على سبيل المثال: "طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا إن الله يُحبُّ بُغاة العلم" (الكليني، ج1، 2005: 24-54). يعتبر أهل الشيعة أنّ العلم يأخذه المسلمون عن الأئمة بالوراثة والوصاية بداية من علي بن أبي طالب والأئمة من بعده من سلالة علي وفاطمة الزهراء (آل البيت) (الكليني، ج1، 2005: 159-166). وكما يفهم من الأحاديث الشريفة عند أهل الشيعة، مثل: "إن العلماء ورثة الأنبياء"، أنّ المقصود بالعلماء هم من آل البيت، أي الأئمة لأنهم هم حملة العلم بالوصاية والوراثة. فيقول الكليني بوصاية الرسول للمؤمنين عمّن يأخذون العلم: "... فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه، فإنّ فينا أهل البيت في كل خلفٍ عدوٌّ لا يتفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين" (الكليني، ج1، 2005: 25).

كما أنّ الحديث عن الرسول (ص)، القائل: "أنا مدينة العلم وعليّ بابها"، وعلى الرغم من الجدل بين رواة الحديث حول درجة صحته، يكون الإمام هو المخول في تفسير الأمور الدينية من القرآن أو الحديث، وليس كما هو متبع عند أهل السنة بإجماع العلماء. كذلك، اتبع الشيعة الولاء المطلق للإمام كركن سادس وهو "الولاية"، إضافة إلى أركان الإسلام الخمسة المعروفة. هذه المبادئ عند الشيعة، خلق تباينات وتشعبات في الشيعة نفسها بسبب الاختلافات على وراثة منصب الإمامة، وخاصة بعد غيبة الإمام الثاني عشر محمد بن حسن العسكري مع منتصف القرن العاشر، وظهور منصب "الإمام القائم" أو "إمام الزمان"، لأداء هذه المهمة في إدارة الشؤون الدينية والدنيوية حتى رجعة الإمام المنتظر (المهدي). وبسبب ملاحقة الشيعة من قبل الأمويين ومن ثمّ العباسيين،

طورت فئات الشيعة مبادئ مختلفة، منها ما يُعرف بالدعوة (الداعي) لنشر العلوم الدينية والمبادئ لاتباعها (الشهرستاني، ج1، 1992: 144-207؛ العوّا، 2016: 109-191؛ حسن، ج1، 1996: 343-347؛ Daftary, 2014). ولذا، فإنّ مبادئ الشيعة وأعرافها ومنهجها العلمي والديني تتفاوت بين فرق الشيعة نفسها، فمنها المعتدلة والقريبة من أعراف أهل السنة كالزيدية مثلاً، ثمّ الإمامية أو الجعفرية، وحتى الفرق المتطرفة بأفكارها كالباطنية، والتي تُعرف حتى عند أهل الشيعة المعتدلة، باسم "الغلاة/ الغالية" (الشهرستاني، ج1، 1992: 176-207؛ البغدادي، 1988: 247-270؛ النَّاشي الأكبر، 1971: 22-48؛ Goldziher, 1981: 174-202).

وقد اعتمد أهل الشيعة وخاصة التيار المركزي والرئيسي منها "الإمامية"، وتعرف أيضاً باسم "الجعفرية" أو "الإثنا عشرية"، على الأصول الأربعمائة التي صاغها الإمام جعفر الصادق (ت 148هـ/765م)، والتي تُعتبر أساس الأصول الفقهيّة عند مذهب الشيعة الإمامية (Halm, 1991: 28-153; Kohlberg, 1991). كان الإمام الصادق مُطلعاً على العلوم الفقهيّة وعلمه الدينيّ الغزير، والذي كان موقع احترام وتقدير من أكبر العلماء في عصره وما بعده، حيث شهد له بفضائله تلميذه الإمام أبو حنيفة النعمان إمام المذهب الحنفيّ. لذا ترك جعفر الصادق أثره على تعليم الفقه الشيعي وأفكاره، وخاصة الإمامية، والتي عُرفت باسمه أيضاً "المذهب الجعفريّ"، كما هو الحال في أثر أئمة الفقه عند أهل السنة. وينقل ابن شهر آشوب عن الإمام مالك بن أنس قوله في الإمام جعفر الصادق: "ما رأيت عينيّ أفضل من جعفر بن محمد فضلاً وعِلماً ووَزَعاً، وكان لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إمّا صائماً، وإمّا قائماً، وإمّا ذاكراً، وكان من عظماء البلاد وأكابر الزهاد الذين يخشون ربهم، وكان كثير الحديث، طيّب المجالسة، كثير الفوائد" (ابن شهر آشوب، ج4، 1991: 268-305). ويقول أحد الشعراء (البشّوي) شعراً في مدح الإمام الصادق، قوله (ابن شهر آشوب، ج4، 1991: 294):

سَلِيلُ أئِمَّةٍ سَلَكَوا كراماً على منهاج جدّهم الرّسول

إذا ما مُشِكِلٌ أَعْيى علينا أتونا بالبيان وبالدلّيل

منذ النصف الأول من القرن العاشر، أخذت الفئات الشيعيّة تنشر قوتها السياسية والفكرية، حين وقع المشرق الإسلامي ومركز الخلافة في بغداد تحت حكم البويهيين الشيعة (945-1056م)، في حين وقع المغرب الإسلامي تحت تأثير الشيعة الإسماعيلية (الفاطمية) ومركزها في مدينة المهدية ثم المنصورية في تونس والمغرب، ثم امتد حكمهم إلى مصر وبلاد الشام وإنشاء عاصمتهم الجديدة القاهرة (909م-1171م) لتشكل مركزهم السياسي، المذهبي والفكري والثقافي. هذا إضافة إلى انتشار فئات شيعية أخرى بالتزامن، مثل الزيدية في اليمن والقرامطة في البحرين وغيرها من المراكز الصغيرة. هذه المرحلة عُرفت في التاريخ الإسلامي باسم "القرن الشيعي"، من حيث التأثير السياسي والمذهبي.

على الرّغم من أن الشيعة كانت قد مرّت بإنشقاقات، كبقية الحركات الدينية والفكرية في الإسلام، لكنّ مبادئها تأثرت ببعض العقائد الفكرية للمعتزلة. هذه التأثيرات يُفسّرها بعض المؤرخين المعاصرين على أنّ الشيعة قد ورثت هذه الأفكار العقلانية من المعتزلة. ولكن الملاحظ من مخرجات هذه الفترة، أنّ غالبية الفرق والتيارات قد تأثرت من التيارات العقلية والفكرية، بما فيها بعض التيارات من أهل السنة أيضاً، مثل الحنفيّة والشافعية، الذين اتخذوا مبادئ الرأي والاجتهاد، حتى أنّ جولدسيهر يذكر أنّ الاختلافات ما بين المذاهب السنيّة الأربعة متباينة أكثر منها مع الشيعة، وأنّ هناك تقارب بين الفكر الشيعي والفكر عند الشافعية من أهل السنة وذلك باتباع الأمور العقلانيّة والرأي (Goldziher, 1981: 203-207).

أمّا التعليم عند الشيعة الفاطمية الإسماعيلية، فقد توجّه الفاطميون ببناء الجامع الأزهر ليقدم العبادات والنشاطات الدينية والعلمية عام 972م، ثم بلغ التعليم مداه بعد بناء مؤسسة "دار العلم" في القاهرة في عهد الخليفة الفاطمي الإمام الحاكم بأمر الله (ت 411هـ/1021م) كمؤسسة تعليم وبحث وترجمة للعلوم الفلسفية والحكمة، والتي نافست بيت الحكمة في بغداد، من حيث عدد الكتب الفلسفية والدينية التي حوتها في قصور الفاطميين، إضافة إلى النشاطات العلميّة من دراسة وترجمة (المقرئزي، ج2، 1997: 163-165، 245). كما أوجد الفاطميون مؤسسة دار الدعوة في القاهرة، والتي عملت على تعليم المذهب الإسماعيلي (الفاطمي) وتنظيمه ونشره داخل وخارج حدود الدولة الفاطمية (المقرئزي، ج2، 1997: 123-136؛ جماليّة، 1986؛ علي، 1947: 57-73؛ Mahamid, 2017: 57-73; Halm, 1997; Jiwa, 2018: 124-135).

وبقيت دار العلم نشطة بعملها حتى تمّ إغلاقها نهائياً مع إبطال الحكم الفاطمي في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي عام 567هـ/1171م، وإعادة الحكم لأهل السنة. وهكذا تخلّص صلاح الدين من مكتبة الفاطميين الغنيّة بمخزونها من الكتب

الفلسفية، عن طريق توزيع البعض منها كهدايا على المقرئين منه، مثل وزيره القاضي الفاضل والعماد الكاتب رئيس ديوان الإنشاء وغيرهم، ومنها ما بيع وغيره قد أحرق، والآخر قد نُهب وما إلى ذلك من الخراب والتدمير. فيقول المؤرخ ابن واصل في هذا السياق: "وكانت خزائن الكتب لهم تزيد على مائة ألف وعشرين ألف مجلدة، وفيها التفاسير من الكتب التي لا يكاد يوجد مثلها، ومنها ما هو مكتوب بالخطوط المنسوبة التي لا توجد في خزانة أحد من الملوك، فحُمِلَ من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال، وترك الباقي ببيع بعضه، وأطلق البعض لمن يختص به" (ابن واصل، ج 1، 1957: 203؛ سبط ابن الجوزي، ج 21، 2013: 182). أمّا المقرئ فيقول أيضاً نقلاً عن سبقه من المؤرخين: "ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا. ويُقال إنه لم يكن في جميع بلاد المسلمين دار كُتُبٍ أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر، زمن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك. ويُقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة" (المقرئ، ج 2، 1997: 165؛ ابن كثير، ج 12، 1990: 266).

تركزت الأفكار الفلسفية والعقلية في القرون الثلاثة الأولى الأثر الكبير في الحضارة الإسلامية. فقد خلقت صراعات فكرية وعقائدية ومذهبية في الإسلام، والتي عُرفت بالصراع ما بين التيار العقلاني (أهل العقل)، الذي تمثل بظهور حركة المعتزلة، وبين التيار الديني (أهل النقل)، والذي تمثل بأهل السنّة والحديث (Saliba, 2007: 73-130, 171-192). وكما ذُكر سابقاً، فبعد الخليفة العباسي المتوكل، كانت ردّة الفعل قويّة في انتصار أهل الحديث على المعتزلة وأفكارها. ومع انتهاء حكم البويهيين في الشرق على يد السّلاجقة وسيطرتهم على بغداد عام 1058م، ثمّ إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي عام 1171، انتهت هذه الحقبة بانتصار أهل السنّة على أهل الشيعة سياسيّاً، مما أدى إلى بداية عهد جديد في إحياء السنّة وانتصار النقل على العقل (Azzām, 2014; Berkey, 2002: 189-202).

كانت ردّة الفعل لهذه الأفكار والتعليم والمناهج العقلانية التي لا تتوافق مع أهل السنّة والجماعة في هذه الفترة، أن ظهرت مؤسسة "المدرسة" لخدمة المذاهب السنيّة، والقائمة على الأوقاف للصرف عليها وصيانتها، ويتنافس الحكّام والأغنياء على بنائها، بداية في إيران في أواخر القرن العاشر، ثم في العراق مع سيطرة السلاجقة على بغداد وإنشاء المدارس النّظاميّة في المدن المختلفة من بلاد فارس والعراق، وأهمّها المدرسة النظامية في بغداد (عسيري، 1987؛ Makdisi, 1991؛ Makdisi, 1981). وبعدها، كان انتشار المدارس سريعاً في بلاد الشام ومصر منذ العصر الزنكي والأيوبي، ووصلت أوجها في العصر المملوكي (أمين، ج3، 1990: 807-866؛ رمضان، 1992: 9، 130-134؛ Berkey, 1992: 130-192؛ Mahamid, 2013: 69-90؛ Chamberlain, 1994). كان التركيز أولاً على الدراسة في مؤسسات منفصلة لكلّ فئة على حدة من المذاهب أو التيارات الفكرية والإسلامية. فمثلاً، ظهرت المدرسة بجانب المسجد لدراسة الفقه وعلوم الشرع المختلفة، ثم برزت مؤسسة دار الحديث ودار القرآن، ثم بدأت تقام مدارس مشتركة لأكثر من مذهب فيما بعد (Mahamid, 2013: 263-280؛ Berkey, 1992: 128-160). أمّا العلوم العقلية، فقد أصابها الضعف والانكفاء لإعدام الدعم لها سياسياً ومادياً، وتركزت في أماكن خاصّة بها، مثل البيمارستان (المستشفيات)، وكذلك بيوت وحوانيت العطارين، أو البيوت الخاصّة لهؤلاء الحكماء وأهل الكلام والحكمة. أمّا الصوفية فقد اتخذوا من الزوايا والمؤسسات الخاصّة بهم أماكن لاجتماعاتهم ونشاطاتهم الدينية والروحانية من ذِكرٍ وأوراد وتسابيح، والتي عُرفت فيما بعد بعدة تسميات حسب الفترات التاريخية المختلفة، منها الرّأوية، الرّباط، الخانقاه، التّكية وغيرها (رزق، ج1-2، 1997؛ Ephrat & Mahamid, 1988: 189-208؛ Fernandes, 2015). وبرز هذا الصراع أيضاً بالخطاب عن طريق الوعظ والمؤلّفات كلّ ضد الآخر. فمثلاً صدرت عن أبي حامد الغزالي عدة مؤلّفات تهاجم الفلاسفة وأهل العقل والباطن، من أهمّها كتابه "تهافت الفلاسفة" و"فضائح الباطنية" وغيرها من المؤلّفات.

ولكن السؤال المطروح هنا، هل انتهت الصراعات الفكرية في العالم الإسلامي بعد انتصار أهل النقل وإحياء السنّة؟ فمن خلال السرد التاريخي، يُلاحظ أنّه طرأ هناك خلافات وصراعات فكرية جديدة بين تيارات أهل السنّة والحديث نفسها، متزامناً مع انتشار تيارات الزهد والطرق الصوفية المنظمة. حيث تأثر شيوخ الصوفية بالنهج الروحاني والفلسفي، مثل: مُحيي الدين ابن عربي (ت 638هـ/1240م)، جلال الدين الرومي (ت 672هـ/1273م) وغيرهم الكثير، فظهرت علوم جديدة مثل علم الخلاف وعلم التصوّف (العوّا، 2016: 247-291؛ شimmel، 2004: 199-217؛ Schimmel, 1975: 186-23).

بعد تهميش العلوم العقلية والفلسفية وتراجع التعامل بها في غالبية البلدان الإسلامية، وجدت هذه العلوم طريقها إلى أوروبا على أثر انفتاح الأوروبيين على العالم الإسلامي بعد الحروب الصليبية المتعاقبة، وكذلك بعد انتشار العثمانيين في البلدان الأوروبية بعد

سقوط القسطنطينية عام 1453م، ثم عن طريق الأندلس، وخاصة بعد سقوطها عام 1492م (المبارك وأبو خليل، 1996؛ 233-256: Saliba, 2007). من هنا، أخذت العلوم العقلية تزدهر في أوروبا وتُدْرَس في جامعاتها اعتماداً على إنتاجات فلاسفة المسلمين وحكماهم، وما نقلوه من العلوم القديمة، حيث يطلق على أسمائهم بعدة تسميات في اللغات الأوروبية، مثل ابن سينا فيُعرف ب-Avicenna، وابن رُشد الأندلسي يُعرف ب-Averroes. وقد انتشرت علومهم في العصور الحديثة في أوروبا، وما زالت، وتُرجمت الكثير من الآثار الإسلامية إلى اللغات الأوروبية المختلفة لتعود إلى بلدان المصدر تدريجياً مع النهضة الحديثة، وبعد عصر الإصلاحات منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن (أحمد، 2011: 280-317؛ اليوزبي، 2010: 119-148).

على أثر هذه الصراعات الطويلة بين المدارس الفكرية المختلفة في العصور الوسطى، كانت نتيجته أن انتصر التيار النقلي على التيار العقلي، أي أخذت تتبلور تيارات أهل السنة والجماعة، مما دعا إلى تطوّر علوم الدين بأصولها وفروعها المختلفة (العوّاء، 2016: 293-329: Madelung, 1985). وبرزت في العالم الإسلامي، مشرقه ومغرب، القيادات الفكرية، الدينية والتربوية، والتي تركت أثرها في مجالات عدة مثل القضاء، والإفتاء والتدريس والوعظ والتأليف والتصنيف وغيرها من المجالات الدينية والأدبية والديوانية، ويصنّفها بأسماء عدّة حسب عملها، ويتخذ لجميع هذه المناصب مصطلح "أرباب" منها أرباب العمام، وأرباب الشعائر، وأرباب الأقلام، أرباب الأقلام الدينية وأرباب الأقلام الديوانية، أرباب الدواوين، أرباب العلم، أرباب الجوامع والمساجد، أرباب الزوايا، أرباب الصدقات والزكوات، أرباب المناصب وغيرها الكثير (القلقشندي، ج، 1، 3، 4، 7، 10، 11، 12، 1987).

وهكذا، راجت العلوم الدينية والمؤلفات التي تدور حولها من تفسير وتاريخ وتراجم وكتب الطبقات وأدب الرحلات وغيرها. وقد ظهر في هذه المرحلة كبار العلماء من المسلمين الذين كان لهم دور بارز في هذا المجال، أمثال: ابن عساكر، العزّ بن عبد السلام، تقي الدين بن تيمية، ابن جماعة، ابن كثير، النووي، ابن دقيق العيد، القونوي، تقي الدين ابن الصلاح وغيرهم الكثير ممن ترك الأثر الكبير في المؤلفات الدينية المختلفة. وفي المقابل، يُلاحظ في هذه الفترة، وخاصة في العصرين الأيوبي والمملوكي، أنّ العلوم العقلية ومؤسّساتها أخذت في الضعف والأفول أمام اتساع وانتشار التيار الديني ومأسسة المذاهب السنية الأربعة في هذه الفترة بشكل رسمي من قبل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (ت 676هـ/1277م)، بالإضافة إلى انتشار الطرق الصوفية المنظمة والمعتدلة ومؤسّساتها وعلومها في جميع البلدان الإسلامية (Saliba, 2007: 233-256; Watt, 1985). يكفي أن نعطي مثلاً هنا في تفاخر الغزالي بنجاح العلوم الشرعية من خلال بعض مؤلفاته مثل: "إحياء علوم الدين" و "تهافت الفلاسفة" (أبو حامد الغزالي، 2004)، والذي ردّ عليه فيما بعد الفيلسوف الأندلسي ابن رُشد بكتابه المشهور "تهافت التّهافت" (ابن رُشد، 2003).

في كتابه "إحياء علوم الدين"، وكما ذكر سابقاً، يصنّف أبو حامد الغزالي العلوم إلى قسمين رئيسيين: علوم شرعية، أي العلوم الدينية المرتبطة بالقرآن وما ورد عن الرسول (ص)، وعلوم غير شرعية، أي ما يرشد العقل إليها كالحساب والطب والكيمياء وغيرها من العلوم العقلية. كما ويضيف الغزالي تقسيماً آخر للعلوم الغير شرعية، بحيث يصنفها إلى ثلاثة أصناف: علوم ممدوحة وعلوم مذمومة، وعلوم مُباحة. من خلال هذا التقسيم نلاحظ أنّ الغزالي اهتم بتصنيفها حسب الغرض والإفادة والمصلحة لخدمة المسلمين (أبو حامد الغزالي، 2005: 11-52؛ حسن، ج1، 1996: 405-418).

أمّا الشيخ بدر الدين ابن جماعة (ت. 1332م) في كتابه: "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم"، فقد رتب أفضلية العلوم وأولوية تدريسها حسب صلتها بالدين الإسلامي من جهة وأهميّة الحاجة الدائمة لمصالح المسلمين وسهولة تعلّمها من جهة أخرى. فيقول ابن جماعة: "إذا تعددت الدروس قدّم الأشراف فالأشرف والأهم فالأهم، فيُقدّم تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين ثم أصول الفقه ثم المذهب ثم الخلاف أو النحو أو الجدل" (ابن جماعة، 2012: 64).

وإذا تتبعنا العلامة ابن خلدون (ت. 1405) في مؤلفه "المقدمة" نلاحظ ثلاث تصنيفات، كما ذكر سابقاً، **الصنف الأول** هو صنف طبيعي يهتدي إليه الإنسان بفكره، مثل العلوم الحكمية/ الفلسفية/ العقلية، أو ما يُسمّى بعلوم الأوائل أو الأقدمين. أمّا **الصنف الثاني** للعلوم فهو النقلي، الذي يأخذه الإنسان عمّن وضعه، ويقصد بها العلوم الوضعية أو النقليّة وهي الشرعيّات المأخوذة عن الواضع الشرعي والأصلي: الله تعالى ورسوله (ص). ويضيف ابن خلدون تقسيماً آخر للعلوم الشرعية/ الدينية إلى قسمين رئيسيين: الأصول، والمتمثلة بالقرآن والسنة، ثم الفروع والتي تنبثق عن الأصول، مثل التفسير وعلم القراءات، علم الحديث، أصول الفقه، الفقه، علم الكلام وغيرها من العلوم الدينية. أمّا **الصنف الثالث** فهو العلوم اللسانية، أي علوم اللسان العربي وما يتعلّق بها، مثل علم اللغة، علم النحو، علم البيان، علم الأدب والشعر العربي. نلاحظ هنا أنّ ابن خلدون أفرد علوم اللسان العربي كعلم منفرد عن بقية العلوم لأهميّتها للنظر في القرآن والحديث، ثم لكون اللغة العربية لسان الأمة وأنزل بها القرآن (ابن خلدون، ج2، 2004: 171-379).

من خلال هذه الأمثلة الثلاث من العلماء، والذين عاصروا فترات متباعدة في العصور الوسطى المتأخرة، نلاحظ سيطرة العلوم الدينية النقلية وانتشارها على حساب العلوم الدنيوية أو العقلية والفلسفية. ففي هذه المرحلة من تطوّر العلوم النقلية/ الدينية/ الشرعية، أصبح يُنظر إلى العلوم العقلية بعين النقد على أنّها بدعٌ وغير محمودة، أي مذمومة كما صنّفها الغزالي، وتفاوتت مواقف هذه الآراء من العلوم الفلسفية والمنطق بين الرّفص الكامل وبين القبول المحدود بما لا يخالف الشرع. فيلاحظ أن بعض العلماء قد درّسوا العلوم الفلسفية لتكون لهم عوناً للرّدّ على الفلاسفة ومجادلتهم، منهم مثلاً أبو حامد الغزالي وتقي الدين ابن تيمية (العوّاء، 2016: 293-363؛ العماري، 2020: 83-175). فعلى سبيل المثال، يقول الذهبي في السير عن الغزالي: "أبو حامد الغزالي إمامُ الفقهاء على الإطلاق، وربانيّ الأمة بالاتّفاق، ومجتهدُ زمانه، وعيّن أوّليه، برع في المذهب والأصول والخلاف والجَدَل والمنطِق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وفهم كلامهم، وتصدّى للرّدّ عليهم..." (الذهبي، ج19، 1984: 335). فمن خلال مؤلّفات الغزالي وأفكاره وتنقله في نشر تعاليمه ما بين طوس ونيسابور في بلاد فارس وبين بغداد ودمشق وبيت المقدس، نجح في محاربة أفكار الفلاسفة والبدع والتشيع، والتي رأى بها مخالفة للدين. فمن أهم مؤلّفاته التي حارب بها هذه الظواهر الفلسفية والشيعية، ومنها ما ذكر سابقاً: "تَهافتُ الفلاسفة"، "المنقذ من الضلال"، "إحياء علوم الدين"، "الرّدّ على الباطنية"، "منهاج العابدين"، "شفاء العليل"، "كتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة" وغيرها من المؤلّفات الكثيرة (بدوي، 1977؛ الذهبي، ج19، 1984: 322-346؛ ابن الجوزي، ج20، 2013: 50-54).

نرى إذاً انتشار العلوم الدينية بتشعب فروعها وتخصصاتها وازدياد الكتابة والتأليف بهذه المواضيع، مرتبطاً بانتشار المؤسسات التعليمية المتخصصة لنشر هذه العلوم، مثل مؤسسة المدرسة وغيرها، مع استمرار المسجد في أداء دوره كمؤسسة تعليمية وازدحام حلقات العلم بداخلها وفي ساحاتها (Mahamid, 2009: 188-212). فمن هنا نلاحظ انتشار أدب الفضائل، الذي يركز على أفضلية العلوم الدينية، في تعلمها وتعليمها. ويُعتبر الغزالي وابن جماعة مثلاً لهؤلاء العلماء الذين خاضوا في الكتابة حول فضائل العلم والتعليم ودور العلماء والمتعلمين في هذه الفضائل. فإذا ما تتبعنا الغزالي وابن جماعة في ذكر هذه الفضائل يُلاحظ أنهما يعتمدان على عدة مصادر للتأكيد على فضائل العلوم الدينية والعاملين بها. **المصدر الأول:** الشواهد من آيات القرآن الكريم، مثل: "الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" (سورة الرحمن: 1-4)، "يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" (المجادلة: 11)، "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" (فاطر: 28)، "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" (العنكبوت: 49)، "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (التحل: 43)، "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ" (البقرة: 129)، وغيرها الكثير من الآيات الكريمة.

أما المصدر الثاني فهو شواهد من الأحاديث والسنة الصادرة عن الرسول (ص)، مثل: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، "من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين"، "العلماء ورثة الأنبياء"، "يستغفر للعالم ما في السموات والأرض"، "إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك"، "خصلتان لا تكونان في منافق: حُسن سميت وفقه في الدين"، "الإيمان عريان، لباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم"، "يوزن يوم القيامة مدادُ العلماء بدم الشهداء"، "صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس: الأمراء والفقهاء"، "لموتُ قبيلة أيسر من موت عالم"، فضلُ العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم"، "يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء"، "إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله، وأن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله"، "يبعث الله سبحانه العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول: يا معشر العلماء، إني لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم، ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم، ذهبوا فقد غفرتُ لكم"، "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة"، "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع"، "لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة"، "من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام، فبينه وبين الأنبياء درجة واحدة"، وغيرها الكثير من الأحاديث (ابن جماعة، 2012: 38-44؛ العَلَموي، 2004: 4-6؛ الزُّرنوجي، 1981: 59-61؛ ابن قُدّامة المقدسي، 1997: 15-18؛ ابن عبد البر، ج1، 1994).

والمصدر الثالث في ذكر فضائل العلوم الدينيّة والعاملين بها، يعتمد على أقوال من الأثر، من الصحابة والتابعين والعلماء: ففي قصيدة للإمام علي بن أبي طالب في فضل أهل العلم، يقول فيها (علي بن أبي طالب، 2005: 13؛ أبو حامد الغزالي، 2005: 15):

ما الفضلُ إلا لأهل العلم أَنَّهُمْ
على الهدى لَمَنْ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقِيَمَةُ الْمَرْءِ مَا قَدْ كَانَ يُحْسِنُهُ
وَالْجَاهِلُونَ لأهل العلم أعداءُ
فَقَفُّ عِلْمٍ وَلَا تَطَلُّ بِهِ تَدَلُّ فَالْتَّاسُ مَوْتٌ وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

وقال الإمام الحسن البصري: "لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم: أي أنهم بالتعليم يُخرجون الناس من حدّ البهيمية إلى حدّ الإنسانية". وقال أبو الأسود: "ليس شيء أعزّ من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك". قال ابن عباس رضي الله عنهما: "خُبر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والمُلْك فاختار العلم، فأعطى المال والملك معه". وقال فتح

الموصلية: "أليس المريض إذا مُنع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا بلى، قال: كذلك القلب إذا مُنع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت". قال لقمان عليه السلام في وصية لإبنه: "يا بُني جالس العلماء وزاجمهم بركبتك، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء". وعن الإمام الشافعي قوله: "من شرف العلم أن كل من نُسب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن رُفِع عنه حزن" (أبو حامد الغزالي، 2005: 14-15).

خلاصة القول أنه منذ القرن العاشر الميلادي أي بعد عهد الأئمة والمسندين اعتقد فقهاء المسلمين أنهم توصلوا إلى الحلول لمعضلات الفقه الإسلامي وبدأ عهد "إنسداد باب الإجتهد"، ولا حاجة للاستعانة بالرأي والعقل بعد، وإنما فقط إستعمال نهج "التقليد" والنقل من النصوص ولما توصل إليه العلماء السابقين، والنقل عنهم إما بالتقليد المحدود أو التقليد المطلق. وهكذا، تعتبر هذه المرحلة عهداً انتصر فيه أهل الحديث (النقل) على أهل الرأي (العقل) وانتشرت فيه العلوم الدينية وترسخت من خلال إنشاء المؤسسات العلمية الدينية والمساجد التي انتشرت في هذه الآونة بشكل واسع من خلال الأوقاف والأعمال الخيرية. وترافق ذلك بإحياء علوم الدين والتركيز على فضل العلم بالتعليم والتعلم، إضافة إلى التصنيف والتأليف. ولكن، بالرغم من انتصار النقل على العقل وإحياء علوم الدين وإحياء السنة، بقي الجدل والسؤال الذي شغل العلماء في العصور الوسطى المتأخرة، وحتى في العصر الحديث قائماً: هل فعلاً أُغلق باب الإجتهد والعمل بالعقل في تفسير وشرح الأمور والقضايا الدينية؟ هذا ما يحاول أن يجيب عليه بعض الباحثين المعاصرين بالتفكير والتحليل لإثبات أن باب الإجتهد لم يُغلق (-Hallaq, 1986:129; Hallaq, 1984: 3-41; Watt, 1974: 675-678; Martínez, 2008; Javed & Javed, 2015: 215-224).

الخاتمة

تعود أهمية مناقشة قضية تعارض العقل والنقل لكون كل واحد منهما له نهجه الخاص من طرق المعرفة في الفكر الإسلامي، بحيث شككت هذه القضية مثار جدلٍ وصراعٍ حاد بين منظومات فكرية مختلفة وخلقت صراعات فكرية وعقائدية ومذهبية في الإسلام، ما بين أهل السنة والحديث (النقل) وما بين أهل الرأي (العقل) الذي تمثل بظهور حركة المعتزلة. وقد تمخض هذا الجدل عن عدد من الاتجاهات والمدارس الفكرية التي تعاملت مع النقل والعقل على أسسٍ ومناهج متباينة. ومن هذه الاتجاهات والمدارس الفكرية من رأى بين النقل والعقل علاقةً تكامليةً تلازميه، ومنها من رأى أن العقل هو أساس النقل، وأن بينهما علاقةً تعاقبيةً، لا تلازميه، ومنها من رأى أن العقل هو أساس كل شيء، فاستبعد النقل بشكل مطلق. ومن الجدير ذكره أن هذه القضية نشأت بعد انفتاح المسلمين على الحضارات الأخرى القديمة، وترجمة كتب المنطق والفلسفة اليونانية، والفارسية والهندية وغيرها. وقد كان تأثير دخول هذه الأفكار الفلسفية والعقلية بالغاً في الحضارة الإسلامية، بحيث تأثر بعض مفكري المسلمين وعلمائهم بتلك الفلسفة بتعظيمها للعقل وجعله معيار قبول الأشياء. وقد عُرفت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي بعصر النهضة في الإسلام لانفتاحها أمام العلوم العقلية والفلسفية ورواج هذه العلوم بين المسلمين. وكانت نتيجة هذه الصراعات الطويلة بين الاتجاهات والمدارس الفكرية المختلفة في العصور الوسطى، انتصار التيار النقلي على التيار العقلي وقد تمثل ذلك بتطور علوم الدين بفروعها المختلفة وظهور القيادات الفكرية، الدينية والتربوية، والتي تركت أثرها في العديد من المجالات الدينية والثقافية والأدبية والديوانية.

المصادر والمراجع

أ. المصادر العربية:

القرآن الكريم

إبن الأثير، علي بن محمد. (1983). الكامل في التاريخ. (ج 5). بيروت: دار الكتاب العربي.

إبن جماعة، بدر الدين محمد. (2012). تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. بيروت: دار البشائر الإسلامية.

إبن خلدون، عبد الرحمن. (2004). المقدمة. (ج 2). دمشق: دار البلخي.

إبن خلكان، شمس الدين أحمد. (1978). وفيات الأعيان. (ج 2). بيروت: دار صادر.

إبن رُشد، محمد بن أحمد. (2003). تهافت التهافت. بيروت: المكتبة العصرية.

إبن شهر آشوب، محمد بن علي. (1991). مناقب آل أبي طالب. (ج 4). بيروت: دار الأضواء.

- إبن عبد البر، يوسف بن عبد الله. (1994). **جامع بيان العلم وفضله**. (ج 1). القاهرة: دار الحرمين.
- إبن العماد، شهاب الدين عبد الحي. (1992). **شذرات الذهب**. (ج 5). دمشق: دار ابن كثير.
- إبن قدامة المقدسي، أحمد بن محمد. (1997). **مختصر منهاج القاصدين**. بيروت: دار إحياء العلوم.
- إبن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. (1990). **البداية والنهاية**. (ج 10، 12). بيروت: مكتبة المعارف.
- إبن واصل، جمال الدين محمد. (1957). **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**. (ج 1). القاهرة: دار الكتب والوثائق.
- أبو بكر إبن العربي. (1992). **العواصم من القواصم**. القاهرة: مكتبة السنة.
- أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد. (2004). **تهافت الفلاسفة**. بيروت: المكتبة العصرية.
- أبو حامد. الغزالي، محمد بن محمد. (2005). **إحياء علوم الدين**. بيروت: دار ابن حزم.
- أحمد، محمد. (أيلول- كانون الأول 2011). "إسهامات العرب في النهضة الأوروبية الحديثة: رؤية جديدة". **مجلة دراسات تاريخية**. جامعة دمشق، العددان 116-115، ص317-280.
- الإسنوي، عبد الرحيم. (1987). **طبقات الشافعية**. (ج 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
- أمين، محمد محمد. (1990). "الأوقاف والتعليم في مصر زمن الأيوبيين". **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**. عمان: المجمع الملكي، 3: 866-807.
- بدوي، عبد الرحمن. (1977). **مؤلفات الغزالي**. الكويت: وكالة المطبوعات.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر. (1988). **الفرق بين الفرق**. القاهرة: مكتبة ابن سينا.
- التميمي، حيدر قاسم. (2011). **بيت الحكمة العباسي ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي**. عمان: دار زهران للنشر والتوزيع.
- جمالية، نهاوند محمد. (1986). **التربية والتعليم عند الفاطميين في مصر**. عمان: الجامعة الأردنية.
- حسن، حسن إبراهيم. (1996). **تاريخ الإسلام**. (ج 1-3). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- حمد، عبيدي ومجموعة مؤلفين. (2017). **صدى المعتزلة في الفكر الإسلامي بين الماضي والحاضر**. منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
- حمود، كامل. (1990). **دراسات في تاريخ الفلسفة العربية**. بيروت: دار الفكر اللبناني.
- خميس، ليلى عباس. (2012). "أثر العقل في وضوح دلالة الخطاب اللغوي عند القاضي عبد الجبار المعتزلي". **مجلة كلية التربية الأساسية**، العدد 75، بغداد، ص95-109.
- دفتر، فرهاد (تحقيق). (2004). **المناهج والأعراف العقلانية في الإسلام**. (ترجمة: ناصح ميرزا). لندن: دار الساقى.
- الذهبي، شمس الدين محمد. (1984). **سير أعلام النبلاء**. (ج 19). بيروت: دار الرسالة.
- الذبي، نجا. (1431هـ/2010م). "العقل: مكانته ودلالته الشرعية على الأصول الاعتقادية". **كلية التربية**، جامعة الملك سعود، العدد 17، ص64-1.
- الرباضي، مفتاح يونس. (2010). **المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الأول 132-232 هـ**. القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر.
- رزق، عاصم محمد. (1997). **خانقاوات الصوفية في مصر**. (ج 1-2). القاهرة: مكتبة مدبولي.
- رمضان، عبد العظيم (محرر). (1992). **تاريخ المدارس في مصر الإسلامية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الزويثي، عوَّاد حميد. (2018). **رواة الحديث**. المدينة المنورة: مكتبة الميمنة المدنية.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين يوسف قرأغلي. (2013). **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**. (ج20-21). دمشق: دار الرسالة العالمية.
- السَّجَّستانِي، أبو داود سليمان. (2009). **سُنن أبي داود**. (ج 5). دمشق: دار الرسالة العالمية.
- سرميني، محمد أنس. (2020). "رفع التعارض بين النصوص بالجمع والترجيح، بين أهل الحديث وأهل الرأي: دراسة تأصيلية نقدية". *darulfunun ilahiyat* 1/31، ص 77-98.
- السُّيوطي، جلال الدِّين عبد الرَّحمن. (1967). **حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**. (ج1-2). القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- الشَّهرستاني، محمد بن عبد الكريم. (1992). **الملل والنحل**، (الجزء الأول). بيروت: دار الكتب العلمية.
- شيميل، آن ماري. (2004). "العقل والتَّجربة العرفانيَّة عند أهل التَّصوِّف". **المناهج والأعراف العقلانية في الإسلام**. (تحقيق: فرهاد دفتري). بيروت: دار الساقى، ص 199-217.
- عسيري، مزيّن سعيد. (1987). **الحياة العلميَّة في العراق**. مكَّة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي.
- العشّ، يوسف. (1991). **دُور الكُتب العربيَّة العامَّة وشبه العامَّة لبلاد العراق والشَّام ومصر في العصر الوسيط**. بيروت: دار الفكر المعاصر.
- عطا الله، خضر أحمد. (1989). **بيت الحكمة في عصر العباسيين**، (ط 1). القاهرة: دار الفكر العربي.
- العَلْمُوي، عبد الباسط بن موسى. (2004). **المعيد في أدب المفيد والمستفيد**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- علي، حَظَّاب عطية. (1947). **التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول**. القاهرة: دار الفكر العربي.
- علي بن أبي طالب. (2005). **ديوان الإمام علي بن أبي طالب**. (تحرير: عبد الرحمن المصطاوي). بيروت: دار المعرفة.
- العماري، محمد الصادق. (2020). **موقف العلماء من الصراعات الفكرية**. منتدى العلماء. (إسْتُرْجَع، 15.3.2022): <https://t.me/MuntadaAlulama>
- العوَّاء، محمد سليم. (2016). **المدارس الفكرية الإسلامية**. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث.
- فياض، سليمان. (2011). **الأئمة الأربعة**. الدوحة: مجلة الدوحة.
- الفلقشندي، أحمد بن علي. (1987). **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. (ج1-14). بيروت: دار الفكر،
- كرومي، كيورك مرزينا وإبراهيم، سامي محمود. (2014). "إشكالية علاقة العقل والنقل بين الغزالي وابن رشد". **مجلة كلية العلوم الإسلامية**. مجلد 8، العدد 15، ص 1-32.
- الكَلِّيني، محمد بن يعقوب بن إسحاق. (2005). **أصول الكافي**. (ج 1). بيروت: دار المرتضى.
- لطف الله، قاري. (1986). **نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي**. الرياض: دار الرِّفاي.
- المبارك، هاني وأبو خليل، شوقي. (1996). **دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية**. دمشق: دار الفكر المعاصر.
- المَقْدَّسي، شمس الدين محمد بن أحمد. (1987). **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. بيروت: إحياء التراث العربي.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (1997). **الخطط المقريزية**. (ج2). القاهرة: مكتبة مدبولي.
- الناشي الأكبر، عبد الله بن محمد. (1971). **مسائل الإمامة**. بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية.

اليوزيكي، توفيق سلطان. (2010). "الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا". ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد 5 العدد العشرون، ص 119-148.

ب. المصادر الأجنبية:

- Al-Khalili, J. (2011). *The House of Wisdom: How Arabic Science Saved Ancient Knowledge and Gave Us the Renaissance*. New York: Penguin Press.
- ‘Azzām, ‘A. al-R. (2014). *Saladin: The Triumph of the Sunni Revival*. Mecca: Islamic Texts Society.
- Berkey, J. P. (1992). *The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo*. Princeton: University Press.
- Berkey, J. P. (2002). *The Formation of Islam: Religion and Society in the Near East, 600-1800*. Cambridge University Press.
- Chamberlain, M. (1994). *Knowledge and Social Practice in Medieval Damascus 1190- 1350*. Cambridge: University Press.
- Daftary, F. (ed.). *Intellectual Traditions in Islam*. London: I.B. Tauris, 2001.
- Daftary, F. (2014). *The Study of Shi‘i Islam: History, Theology and Law*. London and New-York.
- Ephrat, D., & Mahamid, H. (2015). "The Creation of Sufi Spheres in Medieval Damascus" (mid-6th/12th to mid-8th/14th centuries), *Journal of the Royal Asiatic Society*, Vol. 25 / Issue 02, 189-208.
- Fernandes, L. (1988). *The Evolution of a Sufi Institution in Mamluk Egypt: The Khanqah*. Berlin: Schwarz.
- Goldziher, I. (1981). *Introduction to Islamic Theology and Law*. (trans. Andras and Ruth Hamori). Princeton, New Jersey: Princeton University Press.
- Gutas, D. (2012). *Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early 'Abbasid Society (2nd-4th/5th-10th c., (Arabic Thought and Culture)*. Routledge.
- Hallaq, W. B. (Mar. 1984). "Was the Gate of Ijtihad Closed?". *International Journal of Middle East Studies* Vol. 16, No. 1, 3-41.
- Hallaq, W. B. (1986). "On the Origins of the Controversy about the Existence of Mujtahids and the Gate of Ijtihad". *Studia Islamica*, 63, 129-141.
- Halm, H. (1991). *Shi'ism*. Edinburgh University Press.
- Halm, H. (1997). *The Fatimids and Their Traditions of Learning*. London, I. B. Tauris & Company.
- Javed, A., & Javed, M. (2015). "The Need of Ijtihad for Sustainable Development in Islam". *IIUC Studies*, 9, 215-224.
- Jiwa, Sh. (2018). *The Fatimids: 1 - The Rise of a Muslim Empire*. London & New-York, I.B. Tauris.
- Kohlberg, E. (ed.). (1991). *Belief and Law in Imami Shi‘ism*. Aldershot,.
- Lyons, J. (2009). *The House of Wisdom: How the Arabs Transformed Western Civilization*. New York: Bloomsbury Press.
- Lyons, J. (2014). "Bayt al-Hikmah". In: Kalin, Ibrahim (ed.). *The Oxford Encyclopedia of Philosophy, Science, and Technology in Islam*. Oxford: Oxford University Press.
- Madelung, W. (1985). *Religious Schools and Sects in Medieval Islam*. London: Variorum Reprints.
- Mahamid, H. (Sept. 2006). "Isma'ili Da'wa and Politics in Fatimid Egypt". *Nebula* 3.2-3, 1-17.
- Mahamid, H. (2009). "Mosques as Higher Educational Institutions in Mamluk Syria". *Journal of Islamic Studies (JIS)*, 20, Issue 2, 188-212.
- Mahamid, H. (2013). *Waqf, Education and Politics in Late Medieval Syria*. Germany: Lap Lambert Academic Publishing.

- Mahamid, H. (2017). "Persecutions against Isma'ili Missionaries in Central Asia: The Case of Nāser Khosrow". *Journal of Persianate Studies* 10, 57-73.
- Makdisi, G. (1981). *The Rise of Colleges*. Edinburgh: University Press.
- Makdisi, G. (1991). *Religion, Law, and Learning in Classical Islam*. Indiana University: Variorum.
- Martínez, C. (2008). "Limiting the Power of Religion from Within: Probabilism and Ishtihad". In: *Religion and Its Other: Secular and Sacral Concepts and Practices in Interaction*. (eds. Heike Bock, Jörg Feuchter, and Michi Knecht). Frankfurt/M., Campus Verlag.
- Saliba, G. (2007). *Islamic Science and the Making of the European Renaissance*. Cambridge, The MIT Press.
- Watt, M. (1974). "The Closing of the Door of Igtihad". *Orientalia Hispanica*, I Leiden, 675-678.
- Watt, M. (1985). *Islamic Philosophy and Theology*. (2nd ed.), Edinburgh.
- Widigdo, M. S. A. (2017). "Nīshāpūrī Scholars in the Formation of Sunnī Scholarship in the Eleventh Century". *Al-Jāmi'ah: Journal of Islamic Studies*, vol. 55, no. 2, 427-462.